إشكالية تلقي التخييل الذاتي عربيا وأنموذج العلم المعرفي

بوشعيب ملوك
تحت إشراف الأستاذ عبد الكريم لشهب
جامعة ابن طفيل – القنيطرة
المغرب

الملخص:

إن التخييل الذاتي شكل أدبي ثقافي أعاد النظر في ميثاق السيرة الذاتية. و نظرا لما أثاره التخييل الذاتي من أسئلة نقدية حول حدود تجنيسه و تلقيه و هجرته من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية، فإن الكثير من الكتابات العربية تعاملت مع التخييل الذاتي بدون أسئلة جادة حول المسافة المجازية بين الثقافة الغربية و العربية. و قد كان للعلم المعرفي بعدا تجريبيا باعتباره أنموذجا جديدا، و تسخير الآليات المعرفية و التجريبية في فهم الظاهرة الأدبية، و زيادة الوعي بالإدراك و التواصل الأدبيين؛ و منها التخييل الذاتي. و نتناول في بحثنا مكونين أساسين هما: التخييل الذاتي و أزمة تحديده و تجنيسه و تلقيه؛ خصوصا في السياق العربي، و العلم المعرفي باعتباره أنموذجا لخلق قدرة تفسيرية معرفية في فهم الظاهرة الأدبية و التخييل الذاتي.

مقدمة:

لقد أثار التخييل الذاتي الكثير من النقد في السياق الغربي باعتباره نوعا هجينا و رديئا و غير جاد. و في سياق تلقيه في الثقافة العربية كان لزاما أن تطرح العديد من الأسئلة حول هجرة المصطلح و عالميته، و قدرة الثقافة العربية على إعادة بنينة المفهوم المهاجر وفق الخصوصية المحلية للثقافة العربية. و مع تقدم العلم و افتراضاته، تشكلت العلوم المعرفية لتصبح أنموذجا بديلا في فهم الظاهرة الأدبية و حل معضلاتها. في هذا المقال نسعى إلى طرح بعض الإشكالات و الأسئلة نتوخى منها تعميق النقاش حول أزمة التخييل الذاتي في سياق التلقي العربي، و آفاق العلم المعرفي في مقاربة التخييل الذاتي من خلال نموذج الذاكرة و الذات.

I. التخييل الذاتي: إشكالية تحديده و هجرته

1) السيرة الذاتية:

شكلت السيرة الذاتية نوعا أدبيا وثقافيا رئيسًا منذ العصور القديمة حتى وقتنا الحاضر. ومن المعروف أن النقد الذي اشتغل على هذا الجنس الأدبي، انشغل بالتفكير في كثير من الأسئلة والقضايا الفنية ذات الصلة بالسيرة الذاتية من قبيل العلاقة بين الأدب والواقع، والحقيقة والخيال، وميثاق القراءة بين المؤلف والراوي والشخصية. ومع ذلك، فقد طورت كتابات الحياة في سياق التاريخ الأدبي، أنواعا وأشكالا متعددة، خاصة في عصر العولمة، حيث ساهمت وسائل الإعلام والعوامل التكنولوجية/ الثقافية الأخرى في حدوث تحول سريع في أنماط الحياة، انعكس بقوة على مستوى السيرة الذاتية التي تميز حقلها منذ النصف الثاني من القرن العشرين بظهور مغايرات أو أجناس فرعية جديدة مثل المذكرات واليوميات والتخييل الذاتي....

لا شكّ أن المقاربة الثورية التي شيدها فيليب لوجون منذ السبعينيات من خلال مفهومه الشهير "ميثاق السيرة الذاتية" le pacte autobiography (1975) كانت مثمرة، ليس فقط بالنسبة للسرديات وإنما أيضا بالنسبة لمفهوم "التخييل الذاتي". و ميثاق السيرة الذاتية هو افتراض لميثاق مرجعي يعطي للقارئ حق تأويل الصدق أن ما يقرأه ينم عن الارتباط القوي بين القارئ و المؤلف، و بالتالي سن ميثاق مجازي بين المؤلف و القارئ[1]. و نظرا للأهمية التي تحظى بها السيرة الذاتية، ليس فقط في الغرب، و إنما في كل الثقافات، حيث شكلت الكتابة الذاتية و علاقتها بالحياة جوهر النقاشات عبر الثقافية، خصوصا مع العولمة و السياق التاريخي و الثقافي التي تحظى به السيرة الذاتية.

و رغم المكانة التي تحظى بها السيرة الذاتية و التنظير الذي ساهم في تطورها و مقاربتها، فإن الجدل حول تعريفها[2] بأنها تكون أقرب إلى الحقيقة و الصدق، جعل الكثير من الأسئلة تطرح حول مفهوم الصدق و الحقيقة و الذات، مما مكن من ظهور العديد من الكتابات الذاتية التي تتماشى مع السياق الثقافي و المعرفي، أبرزها التخييل الذاتي autofiction.

2- التخييل الذاتي بين إشكالية التعريف و تجريب الذات

[1] - Hywel Dix, Autofiction in English, palgrave macmillan, 2018.p:5.

[2] - ترى ليندا أندرسون أن انتشار السيرة الذاتية و غموضها زاد من إلحاح الحاجة إلى احتوائها و ضبطها ضمن حدود تخصصية، حيث لجأ العديد من نقاد الأدب إلى التعريفات كوسيلة لفرض سلطتهم الأكاديمية على مجال فوضوي، بل و حتى سيئ السمعة. و قد كان لـ "فيليب لوجون " منذ عام 1982 أثرا بالغا في حل هذه المشكلات بوضعه تعريفا للسيرة الذاتية باعتبارها: سرد نثري استعادي، ينتجه شخص حقيقي، يتناول وجوده الخاص، مع التركيز على حياته الفردية، و خاصة على تطور شخصيته. (ليندا أندرسون: ص02). و ترى ليندا أندرسون كذلك أن السيرة الذاتية ظلت محور العديد من النقاشات، التي استندتْ بشكل رئيسي إلى النظريات الفرنسية في التحليل النفسي وما بعد البنيوية والنسوية و الطبيعة البديهية للذات والمعرفة. وقد أزاحت ما بعد البنيوية من خلال طرحها اللغة أو الخطاب كسابقين للذات ومتجاوزين لها، الكاتب من مكانته المركزية كمصدر للمعنى، وقوّضت الذات الموحدة للسيرة الذاتية. (ليندا أندرسون: ص7).

للتوسع حول السيرة الذاتية و ما تثيره من إشكالات أنظر كتاب ليندا أندرسون: السيرة الذاتية. هذا الكتاب عالجت فيه الناقدة العديد من الإشكالات المتعلقة بـ :الذاتية و التمثيل و السرد و اللاوعي و ما بعد البنيوية و النسوية و ما بعد الكولونيالية ، و غير ذلك من المواضيع و الإشكالات التي انبثقت عن النقاشات حول السيرة الذاتية في حوار بين الأدب و النقد.

Linda Anderson, AUTOBIOGRAPHY, Routledge, london and new york, First published 2001.

إن النقاش حول الحقيقة و الخيال هو الذي أدى إلى استشكال أهمية الحقيقة في السيرة الذاتية و حياة الإنسان. و اتضح أن الحقيقة ليست مطلقة في حياة إنسان يعرف مخاضا من التغيرات و الأحداث التي تجعل حتى من حقيقة اللحظة سرابا، أو أن الإنسان نفسه منزوع إلى المراوغة و الكذب و الخداع و التمويه. و بالتالي، فإن الحقيقة في السيرة الذاتية خضعت للتقييم و النقد. فمنذ الستينيات من القرن الماضي، بدأ السجال النقدي في محاججة عدم قدرة الإنسان على سرد حياته بدقة، و ذلك لسببين: أولا، الذاكرة البشرية ليست مثالية من حيث التذكر و إنما تعتريها بعض أوجه الضعف و القصور، و هذه طبيعة بشرية تتداخل فيها عوامل زمنية و مكانية و نفسية تجعل الإنسان يستند أحيانا على الكثير من الآليات المساعدة في بناء التذكر. ثانيا، تتسم الطبيعة البشرية بالنرجسية، مما يجعل الإنسان ذاتيا و غير موضوعي في علاقته بذاته و بالآخرين[3]. و من ثمة، شكلت ثمانينيات القرن الماضي لحظة مفصلية في الدور الذي يلعبه الخيال في بناء تشكل السيرة الذاتية، حيث أدت ما بعد الحداثة إلى اعتبار الخيال مكونا أساسيا و فعلا قصديا يفتح أفق الكتابة الذاتية على التطور و توالد أنواع يفرضها السياق و العصر، أبرزها مفهوم "التخييل الذاتي". و في هذا السياق، وجه الكاتب الفرنسي "سيرج دوبروفسكي" نقدا لـ "فيليب لوجون"حول مفهوم "الميثاق" le pacte، نظرا لما يعتريه من قصور ونقص وعدم كفاية، لأن الظروف التاريخية قد تغيرت منذ زمن السيرة الذاتية الكلاسيكية. وهذا ناتج عن التطورات الثقافية المتنوعة في القرن العشرين مثل التحليل النفسي والسريالية والحداثة وما بعد الحداثة[4].

لقد صاغ "سيرج دوبروفسكي" مصطلح "التخييل الذاتي" في روايته "الخيوط" (الابن)[5] le fils (1977)، لتجنيس أعماله و تمييزها عن باقي أشكال الكتابة الإبداعية الأخرى بشكل عام، وعن شكل السيرة الذاتية بشكل خاص. و يعرف سيرج دوبروفسكي التخييل الذاتي بأنه تخييل لأحداث و وقائع حقيقية تماما، أو أنه إحلال لغة المغامرة بمغامرة اللغة. و بذلك فتح فصلا جديدا يتماشى مع عصر الرواية الجديدة التي أصبحت فيها الرواية عبارة عن مغامرة كتابة و ليست كتابة لمغامرة[6]. و من ثمة، فإن التخييل الذاتي انعكاس لأثر تجربة شاعرية الكتابات الوجودية عن الذات،. و التي كان فرويد و لاكان لهما أثر بالغ الأهمية على دوبروفسكي حول مفهومه للرواية من حيث الدور الكبير للغة على الذاتية والوعي. و بذلك صار التخييل متجاوزا لميثاق فيليب لوجون السير ذاتي، ليلعب دورا انطلاقا من رمزية اللغة و نسج التجربة بين خيوط الكلمات. و النمط اللغوي نفسه يعد مسؤولا عن بناء الحياة السردية وفق خطاب ممتد في سياق ثقافي، حيث لا يكتفي التخييل الذاتي باستيعاب السائد من الأشكال الأدبية، و إنما يستعير أنواعا مختلفة من الأشكال و التجارب الإنسانية، ليصبح نوعا هجينا يتجاوز حدود السيرة الذاتية و الأدب، و كذلك الحدود بين الأدب و الحياة[7]. و بالتالي، فإن التخييل الذاتي يصبح الشكل المناسب لسياق ثقافي يكسر ميثاق فيليب لوجون، و يسن نهجا متشظيا ينهل من ثقافة ما بعد الحداثة التي أثرت على مفهوم الذات و عددت أشكالها، و أصبح تلقي التخييل الذاتي محكوما بالمعايير المتغيرة اللانهائية لهذا الشكل الهجين الذي خلق ضبابية لدى القارئ[8]. و في هذا السياق حول الغموض و الضبابية التي خلقها التخييل الذاتي، يرى فرانك زيبفل frank zipfel أن التفكير في التخييل الذاتي من حيث تأرجحه بين الميثاق السيري

---

[3]-Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, Walter de Gruyter GmbH, Berlin/Boston, 2019, p:1.

[4] - Hywel Dix, Autofiction in English, palgrave macmillan, 2018.p:5.

[5] – نشير هنا أن هناك من يترجم عنوان سيرج دوبروفسكي بـ "ابن"، و لكن هناك من يترجمه بكلمة "خيوط". و بالنظر إلى البعد المجازي و التجنيسي، فإن كلمة خيوط تبدو مرتبطة مجازيا بتجريب الذات بين خيوط الكلمات. و دوبروفسكي في سعيه إلى إدراك ذاته من حيث المستوى التخييلي، يدرك أن ذاته بعيدة المنال، و يقترب من تحقيقها عن طريق خيوط الكلمات " fils des mots" (threads of words). للتوسع أكثر أنظر:

Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:241.

[6] -Mercédès Baillargeon, Le personnel est politique Médias, esthétique et politique de lautofiction chez Christine Angot, Chloé Delaume et Nelly Arcan, Purdue University Press West Lafayette, Indiana, 2019, p : 5.

[7] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:2.

[8] -Mercédès Baillargeon, Le personnel est politique Médias, esthétique et politique de lautofiction chez Christine Angot, Chloé Delaume et Nelly Arcan, p : 5.

الذاتي و الميثاق الروائي، يخلق لدى القارئ هذه الحالة من الضبابية في التلقي في عدم تأكده من كيفية قراءة النص و تجنيسه. و يؤكد فرانك زيبفل أن النصوص الأدبية قادرة على الاستفادة القصوى من هذا الوضع الغامض وبناء رؤى إبداعية لوضع مريح[9].

و لحل إشكالية تحديد مصطلح التخييل الذاتي و ما أثاره من أسئلة باعتباره مفهوما غير موحد، ننظر في تحديد سير دوبروفسكي للتخييل الذاتي انطلاقا من ثلاثة مراحل:

– الجانب الأسلوبي: يتم تحديد التخييل الذاتي من خلال الجوانب الأسلوبية والجمالية، خصوصا التركيز على الجانب الزمني في الكتابة السردية. و عدم وجود تمييز صارم بين أشكال الكتابة الذاتية سواء السيرية أو الروائية، جعل دوبروفسكي يركز على المقوم الأسلوبي. فالتخييل الذاتي يسعى إلى إعادة تشكيل زمن السرد و نسف التسلسلية و الخطية، مع التركيز على البعد التجريبي الزمني بتوظيف آليات مثل تيار الوعي. إضافة إلى جعل التجربة الحياتية مرتبطة برمزية اللغة، و إنتاج دلالات عائمة و معنى غامضا في بعديهما الجمالي.

– الجانب الاجتماعي: اعتبار التخييل الذاتي أحد أشكال السيرة الذاتية مع تجريب لحدود الذات. أي أن السيرة الذاتية تفترض مسبقا جمهورا واسعا محتملا مجهزا بمعرفة مسبقة عن الكاتب وثقافته، بينما كاتب التخييل الذاتي يفتقر إلى مثل هذه المكانة بين الجمهور، لأن تجربة التخييل الذاتي تجربة تأسيسية للمؤلف وليس للقارئ، وكأن التخييل الذاتي مشروع الاكتشاف والتجريب الذاتي من جانب الكاتب.

– التحديد الثالث لسيرج دوبروفسكي حول التخييل الذاتي يعد تاريخيا بالكامل. هذا التصور ينتقد فيه دوبروفسكي ميثاق السيرة الذاتية لفيليب لوجون، لأن التجربة الحية نفسها تخضع لتشوهات بتأثير الخيال والتخييل الذاتي على مضمون الذكريات. و التطورات التاريخية و الثقافية تغيرت و صار لزاما التشكيك في الذات البشرية من حيث تمثيلها و سردها لحياتها، أي أن وجود الذات يرتبط بقوة التخييل أو أن صدمة الذات تولد صدمة كتابة تخييلية [10].

و إذا نظرنا مثلا إلى تعريف التخييل الذاتي و تمييزه عن السيرة الذاتية من حيث التصور الاجتماعي، و اعتبرنا أن المكانة الاجتماعية مكتسبة و مرتبطة بتطور الفرد و حياته في سياق معقد، فإن جعل المكانة الاجتماعية قانونا حاسما بين التخييل الذاتي و السيرة الذاتية يثير الكثير من الشك و النقد. و السيرة الذاتية نفسها مع تغير السياقات و تطور المجتمع و الفرد، لم تعد مرتبطة بأسياد المجتمع أو من يتربعون على هرمية المجتمع، فقد ظهرت سير ذاتية مرتبطة بأنواع من الموضوعات الاجتماعية: سرديات الأقليات، و سرديات المرض، و سرديات الهجرة و المنفى، و المدونات الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي....[11]، و بالتالي تنوعت الكتابة حول الذات بتنوع السياق و الموضوعات المستجدة، حيث صار للسيرة الذاتية حظوة تتجاوز علماء الأدب إلى مجالات عدة تنظر بمنظورها الخاص للذات كسيرة.

على الرغم من إدانة التخييل الذاتي باعتباره "نوعا سيئا (رديئا) mauvais genre" (lecarme 1993)، فقد لقي التخييل الذاتي قبولا جيدا من قبل الجمهور القارئ، وأصبح في الوقت نفسه حقيقة أدبية، ويتم ممارسته على مجموعة واسعة من النصوص الأدبية التي تتناول مسألة الحدود بين السيرة الذاتية و بين الخيال والواقع. و مسألة التخييل الذاتي كنوع أدبي يطرح الكثير من الخلافات. و التخييل الذاتي بالنسبة لمؤيدي الفرضية التخييلية، بغض النظر عن دوبروفسكي، هو ظاهرة عابرة للتاريخ باعتباره عملية سردية لتخيل الذات (كولونا 1989، 2004). في المقابل، تنظر وجهة النظر الأخرى للتخييل الذاتي على أنه تجديد لنموذج السيرة الذاتية (lecarme) أو كتعبير عن نظرية النوع الهجين (Darrieussecq)[12]، لأنه يستعير أنواعا مختلفة منها على سبيل المثل: السيرة الذاتية و الخيال العلمي... لخلق نوع هجين يتطور باستمرار[13]. هذا النوع الهجين، و مع تطور الثقافات و الآليات، جعل حدود تشكله و تمظهره في كثير من المجالات محط إثارة للعديد

---

[9] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:3.

[10] - Hywel Dix, Autofiction in English, palgrave macmillan, 2018.p:3/5.

[11] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:5.

[12] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:243.

[13] -Mercédès Baillargeon, Le personnel est politique Médias, esthétique et politique de lautofiction chez Christine Angot, Chloé Delaume et Nelly Arcan, p : 5

من الأسئلة على النظرية النقدية و الأدبية. فالتخييل الذاتي (و السيرة الذاتية كذلك) يمكن أن يتخذ أشكالا يفرضها سياق العولمة و التطور التكنولوجي بوجود ذات افتراضية سيبرانية (ذات/أنا سيبرانية Cybersoi)، مما يجعل من الذات و الخيال يعاد النظر في مفهومهما و مدى انعكاس ذلك على التخييل الذاتي و السيرة الذاتية. حتى أن البعض رأى أن هناك علاقة بين السيرة الذاتية و الهندسة المعمارية للمدن و المنازل و الديكورات الداخلية، و التي يمكن وصفها بأنها امتداد لأنظمة الكتابة الذاتية، أو بأنها امتداد مادي للأنا في الهندسة المعمارية[14]. و يمكن أن تمتد الكتابة الذاتية لنجدها في الموسيقى و الرقص و الفن التشكيلي و السينما و غير ذلك.

إن التخييل الذاتي ليس تصورا موحدا، فقد كافح النقاد لتحديده ومناقشته وتقديم العديد من الاقتراحات حوله. والحقيقة أن الدراسات الأدبية لا تقدم تفسيرا متسقا لما يعنيه "التخييل الذاتي"، مما قد يدفع البعض إلى اعتباره ضعفا معرفيا[15]. و مع ذلك، فإن المصطلح في ممارسته مرتبط بالكشف عن الدوافع الوجودية للكتابة، و نسج ذاتية بتسخير رمزية اللغة و الخيال، لأن الذات نفسها لا يمكنها سرد حقيقة الحياة. و رغم أن النقاد الجدد، مثل "أرنولد شميت"، دعوا إلى إحلال "سرد الذات" أو " السرد الذاتي" مكان التخييل الذاتي، إلا أن السرد الذاتي يعد جوهر السيرة الذاتية و مسعاها، و لا يشكك في حدود الذات و تخييلها. فالذات في نهاية المطاف سوى بناء سردي، و تحقيق ذات موضوعية مستقلة يطبعها الحقيقة و الصدق أصبحت موضع شك، خصوصا أن التطور العلمي و المعرفي أظهر أن الكثير من جوانب الفكر استعاري و تخييلي كما أبرز ذلك "جورج لايكوف و مارك جونسون" في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها". و رغم ما ينعت به التخييل الذاتي بأنه نوع سيء و غير جاد، و أنه عصي عن التحديد الدقيق، فإن« أرنود جينون arnoud genon » يعتبر أن هذا التنوع الكبير في وجهات النظر التي تتم من خلالها مناقشة هذا النوع في اللغة الفرنسية هي دليل على حيوية نسق التخييل الذاتي ونجاحه في أن يصبح راسخا في مجال البحث الأدبي بشكل عام. و هو ما أكدناه مع "زيبفل فرانك" أن الغموض محرك أساسي لتطور النوع الأدبي في خلق رؤية إبداعية محفزة للملكة النقدية و الإبداعية للمبدع و القارئ، على أن لا يكون الغموض في حد ذاته حاجزا لبناء الشكل و إنتاجيته و تداوله.

3- أسئلة في هجرة التخييل الذاتي إلى الثقافة العربية

إن التحولات التي عرفتها النظرية الأدبية الغربية أثرت بشكل أو بآخر على التحولات الكونية للأدب من خلال المثاقفة وهجرة النظرية. و رغم أن الأدب العربي له تاريخ وجذور من التنظير والممارسة الأدبية، إلا أن الانفتاح على النظرية الغربية أسهم في دخول مفاهيم أدبية بخلفياتها ومرجعياتها التي أعادت استشكال الأدب العربي بين خطاب التأسيس والتيه. ومن أبرز المفاهيم المهاجرة من الثقافة الغربية مصطلح "التخييل الذاتي". و نحن هنا لن نقدم وصفا و مسحا للتخييل الذاتي في الثقافة العربية نقدا و إبداعا، و إنما هاجسنا أن نثير بعض الأسئلة لعلها تزيد من عمق التصور، و تعيد النظر حول كيفية التعامل مع المصطلح المهاجر عموما و التخييل الذاتي خصوصا.

لقد قطع الأدب العربي أشواطا طويلة في بنينة النسق الروائي العربي، والمساهمة في إنشاء مفاهيم نقدية و روائية بمرجعيات ثقافية وفلسفية تحاول الجمع بين القديم و الجديد. إلا أن الملاحظة التي تدفعنا إلى إثارة هاجس النقد و السؤال يتعلق بمدى مواكبة النقد للنص الإبداعي. و أهم نقطة في هذا السياق، أن نشوء النوع الأدبي و الانتقال من شكل إلى آخر في السياق الغربي له ما يبرره نقدا و إبداعا و ثقافة. و لما يهاجر هذا النوع و النظرية إلى الثقافة العربية نجد أن الكتابات النقدية بالخصوص تحاول الاستعارة من النظرية الغربية دون النظر إلى السياق العربي و خصوصياته. و رغم بعض المحاولات النقدية في مجال التخييل الذاتي التي حاولت البحث في الجذور و فهم إشكالية المصطلح المهاجر و مدى تأثيره على الثقافة العربية، مثلما نجد عند الناقد المغربي محمد الداهي الذي ظل مواكبا للتخييل الذاتي في أصوله و تحولاته عبر الثقافية، فإن عدم استحضار مركزية و تاريخ و ثقافة النسق العربي في مواجهة المركزية الغربية، قد يدخل النقد العربي في إعاقة على مستوى عمق الفهم و الحفاظ على خصوصية النسق الثقافي العربي، من خلال تجريب آليات نقدية وأدبية الهدف منها إما المواكبة العالمية أو صناعة موضة تحاكي الغرب أو جعل الماضي والحاضر في هجنة لا يبررها التأصيل والتحول.

[14] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:437.

[15] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:3.

إن إدخال مفهوم التخييل الذاتي في المعجم الأدبي والنقدي للغة العربية هو حديث جدا، رغم المحاولات التأصيلية للبحث عن ما يماثله في تاريخ الإنتاج الأدبي العربي، و البحث عن معادلات باللغة العربية أو ما يتيح التعبير عن معناه. هذا التعامل مع المصطلح جعله عائما من حيث التحديد و التصور نظرا لما يثيره كنوع على المستوى الإبداعي. إذ كيف لمصطلح يثير القلق في النظرية الأصل على مستوى التعريف و الممارسة أن لا يثير الكثير من الأسئلة في سياق تلقيه خارج ثقافته؟. ومن الواضح أن عدم إثارة مثل هذا الإشكال حول مصطلح التخييل الذاتي في الدراسات المكرسة لكتابة الذات في الأدب العربي المعاصر، وكأن هناك إجماع على المصطلح، يجعل من أي مصطلح مهاجر لثقافته يتناسى الخصوصية الثقافية و شروط إنتاجه الجديدة.

إن الثقافة العربية نقدا وإبداعا لم تعطنا مبررات واضحة حول تلقي التخييل الذاتي والانتقال من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي، رغم بعض المحاولات ذات السياق الخاص المرتبطة بالكتابة الإبداعية مثلما نجد عند عبد القادر الشاوي. وأحد الأسئلة والإشكالات المهمة تتمحور حول ما إذا كان تعريف وممارسة التخييل الذاتي إبداعا ونقدا يظل كما هو عند هجرة المصطلح من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية؟. إن الانتقال بين الثقافة العربية والثقافة الغربية (الفرنسية مثلا) يستلزم رحلة مجازية بمسافة رمزية. ونحن نعلم أيضا من خلال "هجرة النظرية"[16] لإدوارد سعيد أن النظرية النقدية نفسها غير قابلة للتطبيق عالميا ولا يمكن تعميمها. على العكس من ذلك، عندما يتغير السياق الثقافي والمؤسسي والتاريخي فإن كل من موضوع النظرية والغرض العام منها يتغيران بالضرورة، أو كما قال إدوارد سعيد إن الأفكار والنظريات تنتقل من شخص إلى آخر " ومن موقف إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى[...] بيد أنه ينبغي للمرء[...] أن يمضي نحو تعيين خصائص الأنواع الممكنة لحركة الانتقال، من أجل طرح السؤال عما إذا كانت فكرة، أو نظرية ما تكسب قوة، أو تخسرها، بفضل انتقالها من مكان و زمان إلى مكان و زمان آخر، وعما إذا كانت نظرية ما، في حقبة تاريخية و ثقافية قومية، تصبح مختلفة تمام الاختلاف بالنسبة لحقبة أخرى و موقف آخر"[17]. ونحن نرى أن هجرة (انتقال) مفهوم التخييل الذاتي بنيت على متاهة نقدية بسبب حمولته الغربية وغموضه المفهومي، و لم يتم استحضار البعد المجازي لرحلة المصطلح بين ثقافتين يختلفان في كثير من الأوجه المادية و المعنوية.

على هذا الأساس، فإن أحد الأهداف المشروعة في تلقي التخييل الذاتي عربيا يتعلق بالبحث عن الخلفيات المؤسسة لهجرة المصطلح و الحدود المجازية بين ثقافتين. صحيح أن موجة تلقي مصطلح التخييل الذاتي عربيا عرف دراسات عدة، إلا أن المصطلح ظل عائما تشوبه المقاربة الاختزالية وعدم الدقة، وتغيب فيه تماسك المؤسسة النقدية مرجعا وخطابا. وهذا ناتج عن غياب رؤية نقدية منهجية معرفية مضادة تتصدى لتعدد تعريفات التخييل الذاتي في الأصل الغربي. وإذا كان لا يوجد تعريف واحد للتخييل الذاتي في اللغة الفرنسية نفسها، ما الآليات التي يتسلح بها النقد العربي في تعامله مع هذا التنوع الكبير في وجهات النظر؟ وهل تعريف ومكونات وخصائص ونظريات التخييل الذاتي تظل كما هي عند هجرتها من النظرية الفرنسية إلى سياق الأدب العربي أم أنها تخضع للتعديل؟. إذن، في نظرنا، أي محاولة للخوض في نوع التخييل الذاتي لابد من استحضار عمق هذه الأسئلة حتى يكون للمصطلح و النوع مرونة و قابلية في نسق الثقافة العربية.

صحيح أن كل ما يتعلق بالتخييل الذاتي في المغرب خصوصا بدأ عام 2006 عندما كتب محمد برادة حول عبد القادر الشاوي والتخييل الذاتي. إلا أن مفهوم التخييل الذاتي شد انتباه النقاد لتتوالى الدراسات والمقالات مع العديد من النقاد العرب. وما يثير الاهتمام هو أن الدراسات النقدية حول السيرة الذاتية أثمرت تصورات تتخبط بين التجنيس السير الذاتي وزئبقة مفهوم التخييل الذاتي (وإن لم يتم التصريح بذلك في بعض الدراسات سواء مع يمنى العيد أو غير ذلك). ففي 2009 نشرت مجلة Fabula على موقعها مقابلة مع الباحث المغربي محمد الداهي، ركزت على التخييل الذاتي في الأدب المغاربي باللغة العربية، مؤكدا الباحث أن محمد برادة هو من أدخل المصطلح في النقد

---

[16] – للتوسع حول موضوع انتقال المفاهيم و هجرتها، أنظر مقال إدريس الخضراوي: "انتقال المفاهيم و تحولات الثقافة: الدراسات الثقافية في الحقل النقدي"، ضمن مؤلف جماعي: خارج الأسوار أوراق في الدراسات الثقافية، تحرير : مبارك جابري، الجمعية العمانية للكتاب و الأدباء، ط1، 2022، ص: 190/149.
و أنظر كذلك: سعد البازعي، هجرة المفاهيم قراءات في التحولات الثقافية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2021، الدار البيضاء، المغرب.

[17] – إدوارد سعيد، انتقال النظرية،ترجمة: اسعد رزوق، مجلة الحكمة: https://hekmah.org.
للتوسع أكثر حول انتقال النظرية أنظر: إدوارد سعيد، العالم و النص و الناقد، ترجمة محمد عصفور، دار الآداب، بيروت، 2018.

المغربي من خلال مؤلفه "مثل صيف لن يتكرر"، لكن سرعان ما التقطه الكتاب بحثا عن تعبير جديد لترجمة تطلعاتهم (مثل عبد القادر الشاوي). و رغم أن الباحث محمد الداهي ظل مواكبا لمشروعه في التخييل الذاتي و معرفته بعمق التحولات في سياق الثقافة الفرنسية خصوصا كتابه "السارد و توأم الروح من التمثيل إلى الاصطناع" (2021)، فإن المثير أن بعض الدراسات التي وسمت نفسها بأنها متخصصة في التخييل الذاتي، حينما تتصفح أوراقها تجد متاهة الوعي بالمرجعية و الخطاب حول مصطلح التخييل الذاتي. و كما قلنا سابقا أن الكثير في الغرب ممن اعتبروا أن أزمة تحديد تعريف التخييل الذاتي قد تعد ضعفا معرفيا، فماذا نقول عن تلقيه في نسق ثقافي عربي مغاير يفقد النظرية المضادة في مواجهة هذا التنوع؟.

حينما أصدر الباحث المغربي "حسن لشكر" سنة 2010 كتابه بعنوان "أنساق التخييل الذاتي والمذكرات والسيرة الذاتية في الرواية العربية الجديدة"، للبحث في الخصائص النوعية للكتابة الذاتية الروائية العربية الجديدة، فإن البحث عن العمق النظري للتخييل الذاتي و إشكاليته في سياق هجرته إلى الثقافة العربية، لا نجد له صدى معرفيا وازنا يعرف به المتلقي العربي ما يطبع هذا النوع من تنوع و تحديات تلقيه. يقول حسن لشكر حول ما طبع الرواية العربية من تحديث و تجريب أثر على أفق الانتظار لدى المتلقي المرتبط بالنمط التقليدي: "و قد توج هذا المنحى السردي بامحاء الحدود بين السارد و المؤلف و توظيف البعد السير ذاتي في المتن الروائي "الجديد"[...] حيث كان يعمد المؤلف لتقديم جانب من شخصيته الحقيقية، و من بعض الومضات المرتبطة به، و يدمج كل ذلك في نسقه التخييلي"[18]. و بعد هذا السياق مباشرة، بدأ الباحث في تحليل مؤلف "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي. و نحن نساءل الباحث بكل أمانة علمية و منهجية: أين الفهم العميق للتخييل الذاتي و تعريفه بين يدي متلق لا دراية له بنوع نعت بالسيئ (الرديء) و الهجين؟. حتى أن ما يثير الدهشة أن المراجع المعتمدة في صياغة وعي نقدي حول هذا النوع الهجين لا تعتمد على الأصول أو حتى مراجع قريبة من الأصل و شارحة له، رغم أن التخييل الذاتي بدأ في فرنسا منذ السبعينيات و أثار نقاشات حادة. و نحن نقول في تعليقنا على مثل هذه المشاهد النقدية المتكررة في السياق العربي، إن العبرة ليست بالجانب التطبيقي، و إنما العبرة بوعي لسياق ثقافي يعاني من أزمة تنظير قبل التطبيق. و كيف لمستوى نظري غير متسق و تام أن ينجح في التجنيس و التحليل و التقييم لمختارات تطبيقية؟.

إن وجود "نقد بمواد حافظة في معدة فارغة" هو صفة الكثير من الكتابات النقدية في عالمنا العربي المعاصر. ففي سنة 2013 أصدرت الباحثة زهور كرام كتابا نقديا بعنوان " ذات المؤلف من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي" سعت فيه إلى "البحث و التفكير في وضعية الكتابة السردية الروائية بالمغرب، و التي تنحو منحى التذويب في علاقة باستحضار ذات المؤلف في التخييل النصي"[19]. و رغم ما أشارت إليه الباحثة من تصورات مقتضبة حول تعريف التخييل الذاتي باعتباره نوعا رديئا و ما يثيره من إشكالات تجنيسية في بعض الصفحات، و اعتماد بعض المراجع ذات التخصص مثل دوبروفسكي (و إن كان حضورا شكليا)، إلا أن الكتاب لا يحمل راية خوض معركة التجنيس و حل ما يعاني منه مصطلح التخييل من تنوع و تعدد في سياقه الغربي. و كان من الأفضل للباحثة زهور كرام أن تضع تخطيطا تصميميا متسقا يبرر الانتقال من شكل إلى آخر، مثلا حدود السيرة الذاتية و إشكالاتها، و الأسباب الشكلية و الفنية الجمالية و الثقافية المبررة للتخييل الذاتي في السياق الغربي و العربي. و كان لابد من التركيز عربيا و مغربيا على تبرير النسق الثقافي في هجرة التخييل الذاتي و أثره على التلقي. و بعد ذلك يكون المستوى التطبيقي مبررا بمرجعية و عدة مفاهيمية واضحة. و أن نبحث في جسم غريب لا نعرف مكوناته و خصائصه بدون آليات تشريحية يراعى فيها التنوع و الاختلاف بين السياقات الثقافية، أشبه بمنتوج مصنع لا تراعى فيه معايير الإنتاجية و السلامة الصحية، و مع ذلك مكتوب عليه خال من المواد الحافظة. و لا يمكن أن يكون لنا نقدا عربيا بمعايير تحترم الوعي الثقافي و الجسر المجازي بين الثقافات، و بعيدا

---

[18] – حسن لشكر، أنساق التخييل الذاتي والمذكرات والسيرة الذاتية في الرواية العربية الجديدة، المطبعة السريعة، القنيطرة، ط1، 2010، ص: 34.

إن هدف إثارة هذا النقاش ليس صاحبه في حد ذاته. و مثلما نادى رولان بارت بموت المؤلف كصيغة مجازية ، فإننا ننادي بموت الناقد كصيغة مجازية، ليصبح النص النقدي هو هدف النقد في ذاته. و بالمثل تضرب العبر، فإن دوبروفسكي لما انتقد ميثاق فيليب لوجون كان الهدف ليس فيليب لوجون، و إنما أن يصبح نموذج "السيرة الذاتية" باعتباره ناقصا و لا يفرضه التحول السياقي مهيمنا و معيقا.

[19] – زهور كرام، ذات المؤلف من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2013، ص: 12.

عن صفة " نقد بمواد حافظة في معدة فارغة "، إلا بتجاوزه للمواد الحافظة التي تملك المعدة و النقد معا. و في سياق نقد النقد، لاحظت الباحثة التونسية أن الدراسات باللغة العربية المهتمة بالتخييل الذاتي يشوبها "تسرعا ملحوظا إن في مستوى التثبت من الحد الأجناسي و التدقيق الاصطلاحي أو في مستوى بعض الاستنتاجات التي توصل إليها بعضهم عند اشتغالهم بنصوص التخييل الذاتي، باستثناء عمل جاد مهم في اعتقادنا للناقد المغربي محمد الداهي [...]". هذا التصور صحيح، و هو ما أكدنا عليه منذ بداية هذا المقال. و تضيف الباحثة في نقدها لعمل كل من حسن لشكر و زهور كرام على مستوى الهامش، أن عمل الباحث حسن لشكر (2010) " لم نعثر فيه على ما به يمكن أن يفيدنا في موضوع "التخييل الذاتي" تنظيرا و تطبيقا" (ص: 23). أما عمل الناقدة زهور كرام "ذات المؤلف من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي" (2013) فقد " ظل يحوم حول السيرة الذاتية و الرواية. و بقيت دراستها دون سند نظري متين يتعلق بأشكال التمييز بين الأجناس الذاتية الفرعية"[20]. و لما تصبح الكتابة النقدية من أجل كتابة نقدية لا تخلق موقفا و لا موقعا في إطار النظرية الأدبية و سياق تمركزها عالميا و محليا، يكون مصير النقد خارج سياق الوظيفة الطبيعية للتقويم و البناء.

إن عمل الناقدة التونسية المعنون بـ "الكذب الحقيقي: من قال إنني لست أنا؟ في إشكالية التخييل الذاتي" (2016) يعد كتابا نقديا استثمر مرجيات أصلية في مناقشة التخييل الذاتي و إشكاليات تعريفه و تجنيسه و حدوده النوعية. و ما يعنينا هنا ليس القدرة السردية على نقل المصطلحات النقدية من أصولها، و إنما مستوى الهجرة الثقافية و قدرة الناقد على وضع مصفاة لفهم التحولات التي تطبع المصطلح و تأثيره في ثقافة أخرى. و لما انتقلت سلوى السعداوي إلى الباب الثاني المتعلق بالتخييل الذاتي في النصوص العربية، حاولت أن تبرر منذ البداية سبب غياب وعي أجناسي (باستثناء التجربة المغربية) في سياق الثقافة العربية. و تقول الناقدة مستحضرة تصور محمد الداهي حول الممارسة الإبداعية في الكتابة العربية: " بما أن المصطلح مازال غائما ملتبسا غربا فلن يكون الأمر عند العرب سهلا مذلل العقبات. لكن رغم ذلك فإن العالم العربي كما يقول الداهي متأثر بالكتابة ما بعد الحداثة الأوروبية إبداعا و نقدا"[21]. و هنا مكمن العمق بحثا عن الكفاية التفسيرية لهجرة المصطلح و موقف الثقافة المهاجر إليها. فالتخييل الأدبي في نهاية المطاف سوى صياغة بلاغية لثقافة غربية، و في سياق الثقافة العربية إما تمحى الأوليات التأثيرية للخصوصية أو ننفخ وعيا جديدا يولد مركزية عربية تعنى بإنتاجية المصطلح نقدا و إبداعا. إذن، سلوى السعداوي لما وصلت إلى الإبداعية النقدية في خلق نقد مضاد اتجاه هجرة (انتقال) المصطلح، أسقطت الآلية نصيا عوض تشغيلها بشكل نقدي مضاد لفهم مكامن الوعي المجازي و حمولة المصطلح بين ثقافتين مختلفتين.

إن تفسيرا لسيرة ذاتية يستند على معايير الميثاق السيري، و أن التخييل الذاتي يخرق هذه المعايير، بناء على لعبة الشكليات المتعلقة بالسارد و الشخصية و الكاتب و التخييل و الصدق و الكذب، هو تفسير حتى أبسط سيناريوهات الوعي الإنساني يمكن أن يتبناه. و لكن لما نعمق السؤال مثل: لماذا يعد التخييل الذاتي نسقا طبيعيا في الملكة البشرية، أو بتعبير آخر؛ لماذا التصورات البشرية العليا تبنى على نسق استعاري و تخييلي في الربط الوجاهي التفسيري مع القدرات البشرية الدنيا؟. هنا نكون أقرب إلى تفعيل الجانب المعرفي العلمي لمعرفة الترابط الحاصل، مثلا، بين الذاكرة و التخييل و الذات في صياغة نموذج التخييل الذاتي.

و أي مقاربة نقدية مسؤولة حول التخييل الذاتي في السياق العربي، لابد أن تركز على الخلفية التاريخية للمصطلح إبداعا ونقدا، وخلق مقارنة بين أصل المصطلح وهجرته إلى الثقافة العربية سياقيا. و بالتالي نقدم توصيات تعد مقترحات مستقبلية لنا جميعا في تلقي التخييل الذاتي على المستوى العربي: 1) ضبط مصطلح "التخييل الذاتي"، 2) إبراز ممارسة التخييل الذاتي في الإبداع العربي من خلال المقاربة الشكلية والموضوعاتية، 3) تحليل وضع التخييل الذاتي في المقاربة النقدية العربية من خلال تعدد التصورات وغياب الأساس النظري، 4) إشكالية التباس مصطلح التخييل الذاتي مع أشكال الكتابة الذاتية الأخرى و أثر ذلك على النقد و التلقي العربيين، 5) هجرة المصطلح وأثره على التلقي إبداعا ونقدا: هل حددت الثقافة العربية آليات تطور التخييل الذاتي و تلقيه أثناء هجرته من الثقافة الفرنسية مثلا؟.

---

[20] – سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي: من قال إنني لست أنا، الدار التونسية للكتاب، ط1، 2016، ص: 23.

[21] – سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي: من قال إنني لست أنا ، ص: 103.

3- ما الذي يمكن أن يقدمه العلم المعرفي للتخييل الذاتي؟

عندما يعاني أي مجال من أزمة هوية و منهجية، يسعى إلى البحث عن أنموذج جديد للخروج من النفق المسدود. و هذا حال الدراسات الأدبية التي تعاني أزمة هوية منهجية، دفعت بالمنظرين و الباحثين خوض معركة فتح أفق الدراسات الأدبية على الأنموذج المعرفي، لإخراج الأدب من أزمته و مسايرته للتطورات العلمية و السياقية. إلا أن دمج الأدب في الدراسة التجريبية المعرفية ليس سهلا، نظرا للخصوصية التي يتمتع بها حقل العلوم الإنسانية الحاضن للأدب. و رغم موقف الكثير من المهتمين بالحقل الأدبي من العلم المعرفي، و رفضهم لأي مقاربة تجريبية للأدب، باعتبار أن الخصائص الأدبية يطبعها البعد الذاتي و القيمي بعيدا عن المعطى المادي التجريبي. صحيح أن هذه خصائص الظاهرة الأدبية، و لكن أن نقف موقف الرفض المطلق من استخدام الأساليب التجريبية، هو خلط بين السهولة و الاستحالة. إذ لابد للدراسات الأدبية أن تبرز مرونة للعلم المعرفي من أجل تجريب الآليات المعرفية و الخروج من خلفية إطار تسببت في أزمة إلى خلفية تتراكم فيها الأدلة التجريبية من جميع التخصصات. و بالتالي، فإن أزمة التخييل الذاتي في تحديد المصطلح انطلاقا من معايير التجربة الإنسانية يعد مجالا واعدا للبحث في طبيعة النسق التخييلي للذات و التجربة الإنسانية من منظور معرفي.

1) بعض إشكاليات العلم المعرفي في الدراسات الأدبية:

يعد العلم المعرفي مجالا متعدد التخصصات: علم النفس المعرفي، اللسانيات، علم الأعصاب المعرفي، الأنثروبولوجيا، الذكاء الاصطناعي.... و قد برز العلم المعرفي كرد فعل على السلوكية بأن العمليات العقلية غير قابلة للملاحظة، و أن الصندوق الأسود (الذهن/ الدماغ/ العقل) لا يمكن فتحه لمعرفة العمليات الجارية و دراستها تجريبيا. و قد كان العلم المعرفي في بدايته تهيمن عليه الدراسات الحوسبية التمثيلية، ليعرف تطورات عدة ظهرت على إثرها العديد من المقاربات المضادة للتوجه الحوسبي، و الساعية إلى البحث في البنية المعرفية للعقل البشري نحو تجاوز للثنائية الديكارتية "العقل و الجسد".

إن الكثير من الجوانب التي يمكن أن يمدها الأدب للعلم المعرفي من أجل تعميق الفهم و تفسير الهندسة المعرفية للعقل البشري. و الأدباء يمتلكون من المهارات و القدرات التي تمكنهم من فهم الطبيعة الإنسانية و تصوريها، حيث يقومون بترميز و تمثيل أعمق الخفايا المتعلقة بطبيعة التفكير البشري. و من ثمة، فإن الحوار بين العلم المعرفي و الأدب ليس مجرد نزهة في غابة بدون هدف، و إنما الترابط بينهما يؤسس لعلاقة مسؤولة تجريبيا نحو فهم الظاهرة الأدبية و تعميق الأنموذج المعرفي. و لهذا، منذ الثمانينات، اتخذ الكثير من العلماء و اللسانيين المعرفيين (جيروم برونر، جورج لايكوف و مارك جونسون، جيل فوكونييه...) الخوض في إعادة تفسير خصائص الظاهرة الأدبية تقليديا وفق منحى معرفي، مثل الاستعارة و القصة و الشعر و السرد.... ، حيث عدت الظاهرة الأدبية ذات نزعة نفسية، و أن الأدب نسقا طبيعيا ينتشر في كل مناحي الحياة الإنسانية.

إن جعل الأدب مركزيا في فهم النفسية البشرية، أو كما قال جيروم برونر "ارتقت أذهاننا إلى أذهان أدبية"، هو حصيلة وجاهية interface معرفية بين العلوم المعرفية (اللسانيات المعرفية) و النظرية الأدبية، مما أنتج شعرية معرفية تعنى بتفسير النصوص الأدبية وفق مبادئ العلم المعرفي، و زيادة الوعي بالأدب باعتباره شكلا من أشكال الإدراك و التواصل. و من ثمة، فإن المقاربات المعرفية؛ منها الشعرية المعرفية و السرديات المعرفية، تسعى إلى البحث في البنية المعرفية للأدب باعتباره نسقا طبيعيا حول التجربة الإنسانية، و ذلك بخلق مزج معرفي بين النص (اللغة معرفيا) و الخطاب (الخطاب معرفيا). و بتعبير آخر، إذا كان الأدب نسقا معرفيا مركبا من كل خصائص التجربة الإنسانية، فإن مقاربته تحتاج إلى نهج مركب متعدد التخصصات يحيط بكل جوانب الظاهرة الأدبية. و من أبرز الإشكالات التي يمكن أن تكون المقاربة المعرفية للأدب فاعلا فيها: يتعلق بمشروع "الذات/ الأنا معرفيا" من خلال النسق التخييلي للتجربة الأدبية.

2) التخييل الذاتي و العلم المعرفي: الذات و الذاكرة نموذجا

عندما نسم التخييل بالذاتي فإن أول الأسئلة التي تطرح: ما هي "الذات"؟. و تعريف الذات ليس أمرا يسيرا نظرا لتعدد المقاربات التي خاضت النقاش حول مفهوم الذات، و ما إذا كانت الذات هي الشخص أو الشخصية أو الأنا. و عموما، فإن المقاربات التي ناقشت تعريف

الذات انقسمت إلى تصورين. أولا، تصور فردي يهتم بالقدرات و السمات الفردية منها التوجه الجوهري Essentialist (الجوهر يسبق الوجود) و التوجه الوجودي Existentialist (الوجود يسبق الجوهر). ثانيا، تصور اجتماعي علائقي Social-relational يهتم بالظروف و العلاقات الاجتماعية الأولية المكونة للذات و استمراريتها[22]. مثل هذا النقاش المتعدد حول الذات ينعكس على تحديد مفهوم التخييل الذاتي. و أي نقاش حول حدود الذات و مفهومها لابد من استحضار الذات الديكارتية و الذات الواقعية البشرية. و بما أن الذات الديكارتية خاضعة للثنائية الفاصلة بين الجسد و العقل، فإن تطور العلم المعرفي كشف عن الكثير من أخطاء هذه الثنائية الديكارتية. و من ثمة، فإن أي بحث حول حدود الذات في التخييل الذاتي، لابد من النظر إلى الأنا التخييلية لـ "الذات المتجسدة"، و أن التجربة الإنسانية مكون أساس في بناء الذات انطلاقا من بيئة أوسع[23]. و بالتالي، تعمل العلوم المعرفية على إعادة الاعتبار للذات المتجسدة الغائبة في التصور الديكارتي الذي أثر في خلفيات مجالات كثيرة منها النظرية الأدبية. و لتمثيل أهمية الذات المتجسدة نبرز مثالا حول القيمة التي أبرزها العلم المعرفي في الصناعة السينمائية، نستحضر الفيلم الهندي " غاجيني" للممثل عامر خان، يسلط فيه الضوء على شخصية غنية تتعرض لحادث غدر تفقد فيه الذاكرة. و ما يهمنا هنا أن انتقام البطل رغم فقدانه للذاكرة، بنى أحداث تذكره و انتقامه بالارتكاز على الجسد و البيئة و العالم. و أن البطل أدرك العالم انطلاقا من مكونية الجسد و البيئة في حصول الإدراك و المعرفة. بمعنى آخر، جعل الذاكرة و آلياتها تتجاوز المستوى الحوسبي التمثيلي إلى الارتكاز على الجسد و البيئة الأوسع. إذن، لم تعد الذات كيانا موضوعيا و معطى جاهزا في عالم مسبق، بل جعل الذات كائنا فاعلا ينسج من هياكل الجسد الحي بتعبير ميرلوبونتي. و هو ما جعل من جورج لايكوف و مارك جونسون يتحدان الفكر الغربي الذي رسخ عقيدة لدى الإنسان بأن السلوك الذكي لا علاقة له بالجسد و البعد الاستعاري، و أن التفكير مجرد و موضوعي و حرفي. و بالتالي مع تطور العلم المعرفي بدأ الاستدلال على تصور الذات في ارتباطها الوثيق بالبعد الجسدي و البيئي، و أن الجسد يوفر بيئة ملائمة للتجربة الذاتية و كل القدرات البشرية العليا. و من أبرز ما استدل عليه على مستوى التجربة الذاتية و قدرة الذات باعتبارها تطورا طبيعيا للقدرة البشرية بمزج المستوى الأعلى مع المستوى الأدنى، ما سمي بـ "المعرفة الاجتماعية" و دور الذات في تشكيل المجموعات و العلاقات و الصراعات، انطلاقا من الدور الذي يلعبه التطور و الخلايا العصبية و الثقافية في بناء عضوية المجموعة[24] أو عودة علاقة الذات بالآخر إلى نسقهما الأحيائي التطوري.

و بالعودة إلى الذاكرة و ارتباطها بالتخييل الذاتي، فإن من بين أسباب جعل التخييل الذاتي يتماشى مع الخاصية البشرية، أن الذاكرة معرضة للعطب و الاختلال أو ما سمي بأزمة الذاكرة. و ما " يستأثر الاهتمام أكثر في أزمة الذاكرة هي قضية تمثيل الذات ارتباطا بالسرد الذي ينجز عن ماضيها: كيف ينظر إلى ذواتنا؟ و كيف نقدمها إلى الآخرين؟"[25]. و قد قدم علم الأعصاب المعرفي دراسات عميقة باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي للكشف عن العلاقة بين تغيرات الدماغ و تغيرات الذاكرة. و قد أقيمت العديد من التجارب على مستوى فقدان الذاكرة و تلفها، تبين أن الذاكرة العرضية episodic memory لها ما يميزها عن أنظمة الذاكرة الأخرى. و من بين الاستدلالات التي توصل إليها العلم أن نظام الذاكرة العرضية عادةً ما يكون أول نظام ذاكرة يتدهور بسبب الشيخوخة أو المرض، خلافا للذاكرة الدلالية semantic memory التي تبدي مرونة أفضل و قدرتها في الحفاظ على سمات كثيرة من تذكر هوية الشخص[26]. و رغم ما يطبع هذه الأدلة التجريبية من إشكالات و تحتاج إلى مزيد من البحوث و التحسينات لمعرفة أوجه التشابه و الاختلاف بين الذاكرة العرضية و الذاكرة

---

[22] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:390/392.

[23] - Fludernik, Monika. Toward a Natural Narratology. London: Routledge, 1996, p:9.

[24] – للتوسع حول هذا الموضوع أنظر ، جاكندوف راي، اللغة و الوعي و الثقافة أبحاث في البنية الذهنية، ترجمة محمد غاليم، مراجعة: محمد الرحالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2020.

[25] – محمد الداهي، السارد و توأم الروح من التمثيل إلى الاصطناع، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء/المغرب، ط1، 2021، ص: 85.

[26] -Martina Wagner-egelhaaf (editor) Handbook of Autobiography Autofiction, p:26/27.

الدلالية على مستوى الدماغ و انعكاس ذلك على التخييل الذاتي، إلا أنه بعد تجريبي واعد في حل إشكالية التخييل الذاتي باعتباره نسقا معرفيا يفسر سبب العطب الذي يجعل الذاكرة تستند على جوانب كثيرة لخلق هجنة سردية تخييلية للذات.

خاتمة:

إن إشكالية التخييل الذاتي و تلقيه ليس استعراضا لعضلات التلقي من الآخر أو موضة نزين بها الكتابة النقدية، و إنما التخييل الذاتي كباقي الأشكال الأدبية حمولة ثقافية، إذ وجب النظر إليه من مستوى ثقافي مضاد و معرفة الفضاء الرمزي لهجرة المصطلح و تغيراته و فتح الأدب على تطور العلوم من خلال الأنموذج المعرفي. و من ثمة، حاولنا طرح بعض الإشكالات المتعلقة بتلقي التخييل الذاتي في النسق العربي، و بعض الإمكانيات الواعدة للعلم المعرفي في حل أزمة التخييل الذاتي و الظاهرة الأدبية.